

## الفصل الثاني

\* في العلم بالحق وكنمانه والكفر به وتكذيبه.

### الآيات

١ - ﴿ وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾  
(البقرة: ٤٢)

٢ - ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا  
أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ. وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا  
لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ ﴾

(البقرة: ٩١)

٣ - ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً  
تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ  
مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ  
لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

(البقرة: ١٤٤)

٤ - ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ  
فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾  
(البقرة: ١٤٦)

٥ - ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ  
وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ  
فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ  
مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا  
لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿

( البقرة: ٢١٣ )

٦ - ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ  
وَإِلَّا نَجْعَلَ ۚ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿

( آل عمران: ٤٣ )

٧ - ﴿ يَتَاهَلِ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ  
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿

( آل عمران: ٧١ )

٨ - ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبُؤُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿

( الأنعام: ٥ )

٩ - ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسَتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿

( الأنعام: ٦٦ )

١٠- ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

( الأنعام : ١١٤ )

١١- ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يُقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

( الأعراف : ٥٣ )

١٢- ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ ﴾

( يونس : ٧٦، ٧٧ )

١٣- ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

( مريم : ٣٤ )

١٤- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾

( العنكبوت : ٦٨ )

١٥- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا

﴿ مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

(السجدة: ٣)

﴿ ١٦- وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آفَاكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴾

(سبا: ٤٣)

﴿ ١٧- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا بِآيَاتِنَا لِلْبَاطِلِ يُدْحِضُونَ إِلَيْهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(غافر: ٥)

﴿ ١٨- وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾

(الزخرف: ٣٠)

﴿ ١٩- وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

(الأحقاف: ٧)

﴿ ٢٠- بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴾

(ق: ٥)

من رحمة الله بخلقه أن هداهم للحق بآيات في الأفاق وفي الأنفس لا تخفى دلالتها. وبينات من الهدى والفرقان يرسل بها رسله وينزل كتبه فلا يؤاخذهم إلا بعد

بيان ولا يعذبهم إلا بعد تبليغ وإعذار فمنذ هبط الإنسان إلى الأرض وهداية الله تلازمه وبيناته ترشده وكلمة الحق تأتيه بلاغا من الله وإنذاراً لخلقه .

﴿ قَالَ أَهَيْطَ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا أَيُّكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشَرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَنَّا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۗ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۗ﴾

( طه : ١٢٣ - ١٢٧ )

وهذا البلاغ والإنذار بدأت مرحلة الإنسان في الحياة وتوافدت الأجيال والقرون وتتابع الرسل يبلغون الناس كلمة الحق ويبصرونهم للقيام بالقسط :

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۗ﴾

( النساء : ١٦٥ )

هبط الإنسان إلى الأرض وقد هيا الله له أسباب الحياة في جميع صورها المادية والمعنوية . فجعل له أسباب متاعه كما أقام له أسباب تبصرته وتذكرته في اتساق لا اختلاف فيه ولا تناقض بين آياته . وأقام ذلك كله على الحق الذي من أجله جاءت الآيات وقامت البيئات وأنشئت القرون وتتابع الرسل .

ومع بيان الحق تباينت مواقف الناس ما بين راغب فيه وكاره له ومتبع ومعرض ومؤمن ومكذب . وتميزت صفوف الخلق من أول يوم نودى فيه بالحق . ورأينا المكذبين من

الآخرين يرددون ما قاله الأولون من المكذبين وكأنهم على إتفاق فيما بينهم على ما يقولون :

﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَأْتُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

( الذاريات : ٥٢ ، ٥٣ )

وكل مكذب لا يكون إلا بعد بيان وإنذار . فهو على علم بما كذب به وبلاغ يبطل حجته ويقطع معذرتة . فمن ضل منهم ضل على علم ومن آمن آمن على هدى وبصيرة .

والرسل يصدق بعضهم بعضا وينصر بعضهم بعضا . فلا خلاف بينهم فيما دعا إليه وآمنوا به وأرسلوا من أجله فهم إخوة دينهم واحد يقيمونه جميعاً ولا يتفرقون فيه . فكل من فرق بينهم فآمن ببعض وكفر ببعض فقد كفر بهم جميعاً . وفي بدهة العقل أن من صدق قولاً لأحد ثم كذب من يصدقه في هذا القول فقد كذب بمن صدقه ووقع في تناقض بين إدعاء التصديق وإعلان التكذيب لحقيقة واحدة . .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾

( البقرة : ٩١ )

وقع ذلك من أهل الكتاب بعضهم مع بعض حين أرسل الله عيسى عليه السلام مصدقاً لما جاء به موسى مؤمناً به داعياً إلى ما دعى إليه . ووقع ذلك من اليهود والنصارى حين أرسل الله نبيه بكتاب مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل . فوقعوا بتكذيبهم في تناقض مريب بين ادعائهم التصديق وإعلانهم التكذيب بالحق الواحد الذي بعث الله به كل نبي ورسول .

والحق لا تناقض فيه ولا اختلاف . . وإنما التناقض في النفوس والاختلاف في

الأهواء . والحق أعلى وأبقى وأمنع من أن يترك لمبتدع أو مدع ومفترا لا يستند إلى حجة أو برهان .

ومن أجله . نزل الله الذكر وحفظ الكتاب . أنزله بالحق . ومن أجل الحق :

﴿ وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزْلًا ﴾

(الإسراء: ١٠٥)

وجعله عزيزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . مهيمنا على رسالة الرسل جميعاً أميناً وشهيداً وحافظاً . يقرر الحق الذي جاءت به ويرد عنها إدعاء المضلين وتلبس المبطلين . ويعلن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بلا تفرقة ويهدي للتي هي أقوم وينذر ويبشر . ينذر أولئك الذين يكفرون ويفرقون :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾

(النساء: ١٥٠، ١٥١)

وَيُبَشِّرُ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَلَا يَفْرَقُونَ :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُم بِحَقِّ اللَّهِ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(النساء: ١٥٢)

وأكثر الناس تلبيساً وتدليساً هم أهل الكتاب من اليهود وفيهم نزل قوله تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ

(آل عمران: ٧١)

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿

ومورد الآية في الحديث عن بني إسرائيل وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ومطالبتهم بالوفاء بما عاهدوا الله عليه والإيمان بما أنزل مصدقا لما معهم .

﴿ يَبْنِي إِسْرَاءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي  
أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَعَآمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ  
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرِينَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي  
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَطْلِ  
وَتَكْفُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿

(البقرة: ٤٠ - ٤٢)

وقد أُجمل هذا العهد ولم يبين وفُصِّل ذلك في مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ  
وَلَا تَكْفُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا  
قَلِيلًا فَبُخِيسًا مَا يَشْتَرُونَ ﴿

(آل عمران: ١٨٧)

وفي قوله :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ  
أَثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ  
أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي

وَعَزَّزْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّا تُكْفِرَنَّ  
عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا تُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ  
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿

( المائدة : ١٢ )

فهذا مما أخذه الله عليهم ﴿ لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ . فساقهم هواهم فكتموا  
ولم يبينوا وكتبوا بأيديهم ونسبوا ما كتبوه إلى الله ليشتروا به ثمنا قليلا . ولبسوا الحق  
بالباطل . والباطل بالحق . فآمنوا ببعض ما في التوراة وكفروا ببعض كصفات رسول الله  
صلى الله عليه وسلم وغيرها مما جحدوه طلبا لمنفعة عاجلة وحسدا من عند أنفسهم من  
بعد ما تبين لهم الحق .

والحق الذي كتموه - وهم يعلمون أنهم كاتمون ومحاسبون - هو محمد صلى الله عليه  
وسلم ونبوته وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم . ومعنى  
قوله : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ . أي لا تخلطوا الحق بالمنزل بالباطل الذي تخترعونه  
وتكتبونه حتى يشبهه أحدهما بالآخر . وقد فعلوا ذلك دون خشية أو خوف من الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكَيْبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا  
مِنَ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا  
كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

( البقرة : ٧٩ )

ومن أنكر الحق - وهو يعلم أنه الحق - كبرت جريمته وساءت عاقبته . وكذلك كان  
اليهود عندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم . وقفوا من الحق موقف مبطل يعرف  
الرسول صلى الله عليه وسلم وهو حق وينكره ويعرف الكتاب المنزل عليه وهو الحق وقد  
جاء مصدقا لما بين يديه ويحجده :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا  
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ  
مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

( البقرة: ٨٩ )

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ  
بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ  
ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

( البقرة: ١٠١ )

وَكَذِبًا قَالُوا نؤمن بما أنزل علينا لأن ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم مصدق  
لما معهم فكفرهم به كفر بما أنزل عليهم . وهذا الجحود في مقابلة الرسل داء قديم فيهم  
واعتدواهم على الأنبياء لا يقف عند الجحود والإنكار بل يتعدى ذلك إلى القتل :

﴿ وَإِذْ أَيْقَلَ لَهُمْ ءِإِمنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا  
أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا  
لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ ﴾

( البقرة: ٩١ )

ويمتد بهم الجحود والإنكار إلى الكيد والصد . بل إلى الغدر ونقض العهد فإذا سئلوا  
عن الرسول صلى الله عليه وسلم - وهم أهل كتاب - يسألهم من ليس عنده علم  
بالكتاب لم يتورعوا أن يفضلوا الشرك على التوحيد وعبادة الأصنام على عبادة الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ

يَا لِحَبَّتِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى  
 مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ  
 يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾

( النساء: ٥١، ٥٢ )

كفروا وأضلوا غيرهم وحسبوا لأهل الشرك شركهم ﴿٥١﴾ ويقولون للذين كفروا هؤلاء  
 أهدي من الذين آمنوا سبيلاً ﴿٥٢﴾ . وقع ذلك منهم حين حزبوا الأحزاب فلما قدموا على  
 قريش قالوا هؤلاء أحناب يهود وأهل العلم بالكتاب الأول فاسألوهم أدينكم خير أم دين  
 محمد؟ فسألوهم فقالوا دينكم خير من دينه وأنتم أهدي منه ومن اتبعه . قالوا ذلك  
 ليستميلوا المشركين لنصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب وكان أن ردهم الله  
 بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال : وحق بيني قريظة - من اليهود - غدرهم  
 وهم يظاهرون العدو وينقضون العهد متوهمين أنها ساعة فناء للمسلمين يجب أن تغتنم  
 ولحظة قضاء عليهم لا يصح أن تفوت ونسوا الله فأنساهم أنفسهم فكان الجزاء من  
 جنس العمل .

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ  
 وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

( الأحزاب: ٢٦ )

كلما سنحت لهم فرصة غدر غدروا وكلما توهموا كسبا من خيانة وقعوا فيها :

﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ  
 وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

( الأنفال: ٥٦ )

والعجيب في أمرهم أن نتائج أعمالهم تلاحقهم ولا يعتبرون ويخاطبون بأفعالهم  
 وما دبروه في سرهم - وهم يعلمون أن الذي يخاطبهم نبي يوحى إليه ولا يتعظون - وكلما

جوزوا على فعل عادوا مثلثه وكلما كشف غدر وقعوا في غيره ﴿ ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين ﴾ . ومع كل فساد جزاء . ولن يقبل الله أن تبقى نار حريمهم دون إطفاء . وقد تعهد سبحانه بإطفاء ما أشعلوه وإخماد ما أوقدوه : ﴿ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ﴾ .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

( الأعراف : ١٦٧ )

لقد عايشوا الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة . وهو من هو : رحمة ووفاء - وبرا وصدقا . وحقا وعدلا . فعمدوا على إطفاء ما جاء به وإنكار ما عرف عنه . ووجدوا من دواب البشر من يؤاخيهم ومن رؤوس النفاق من يشايعهم ويبيت الشر معهم . وجبريل الأمين يتنزل بأمر ربه بآيات منها ما يكشف خباياهم وما تطويه صدورهم وما يدبرون من كيد ويعملون من عمل . والرسول صلى الله عليه وسلم - وهو يبلغ ما أوحى إليه - يصدع بها أمر به ويتلو عليهم آيات ربهم :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

( آل عمران : ٧١ )

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

( آل عمران : ٧٠ )

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾

( آل عمران : ٩٨ )

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِنِّ أَمَنَ  
تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

( آل عمران : ٩٩ )

يتلو عليهم ما أمر بتبليغه وفيه من التحذير ما فيه ومن الدلالة على الحق الذي يعرفون . ومع هذا لا يستحون ولا يتورعون . بل يعمدون إلى التشكيك والإساءة وإلقاء الشبهات ونشر الأباطيل . ما يتوهمونه دافعا للحق مطفئا لنوره ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ . فإذا تحول المسلمون إلى الكعبة بأمر من ربهم وجدوا في ذلك فرصة لإلقاء الشبهات ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ .

وهم يعلمون أنهم ما ولوا وجوههم شطر المسجد الحرام إلا بأمر من الله ولكنها السفاهة تقود صاحبها إلى إنكار ما يوقن به وتدفعه إلى جحود ما يعلم أنه الحق ﴿ وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ . فما الذي يدعوهم إلى التساؤل ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ . وهم يعلمون أنه الحق . وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ما فعل ذلك إلا بأمر من ربه وإن تطلع إليه من قبل أو أحبه ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ . وهل كانوا مؤمنين حين كان يولى وجهه شطر المسجد الأقصى ؟ وهل دفعهم ذلك إلى إظهار الحق واتباعه أم قادهم الحقد والحسد إلى التكذيب والإعراض والصد والكيد :

﴿ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ  
وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن  
اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ  
إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ  
يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ  
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْتُمِينَ ﴾

( البقرة : ١٤٥-١٤٧ )

ما جاء من الله هو الحق . والحق عند هؤلاء يريدونه لخواهم فإن كان لهم فهم له مدعون وإن كان عليهم تولوا عنه معرضين . يرون الحق لأنفسهم ولا يرونه لغيرهم ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ .

فمن آمن منهم بالحق رموه بالكذب والبهتان . وهذا ما كان منهم عندما أسلم عبدالله بن سلام وهم يقررون أنه سيدهم وابن سيدهم وعالمهم وابن عالمهم فلما أعلن استجابته للحق الذي يعرفون وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بسطوا ألسنتهم إليه بالسوء في نفس المجلس الذي قرروا فيه أنه سيدهم وحببرهم .

ولم أر شيئاً يدمر صاحبه ويجعله أهلاً لغضب الله ولعنته كإنكاره لحوق يعلم أنه الحق وتكذيبه لأمر يوقن أنه الصدق واقترائه على الله الكذب وظنه بالله غير الحق .

وكل من كان له قلب يرتجف حين يقرأ الآيات الموجهة لهم ويقشعر من التخويف والإنذار وهم يفعلون ما يفعلون . ويقولون لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات . سفاهة في التكذيب . وبجاجة في التعلق بالأمانى :

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ  
أَتَّخِذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَيُّكُمْ يَقُولُونَ  
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً  
وَأَحْطَتْ بِهِنَّ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ  
فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(البقرة: ٨٠، ٨١)

وكم من كوارث وقعت بهم وكم لله فيهم من آياتٍ ؟

﴿ وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(يونس: ١٠١)

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي

اللُّنْيَاخِزْيُ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿

( المائدة: ٤١ )

جميع الرسل جاءوا بالحق والحق واحد لا يختلف . ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ﴾ . وجاحد الحق من بعد علم لا يحظى من الله بهداية أو توفيق . وإنما يهدى إلى الحق من أناب إليه ويفوز بالصدق من صدق به :

﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ  
وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

( البقرة: ٢١٣ )

والوعيد شديد لأهل الكتاب من نصارى ويهود وهم يُدعون إلى كلمة سواء تقرر الحق - وتفرد الله بالعبودية ولا تشرك به أحداً من خلقه . وتنفى أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله - يُدعون إلى ذلك فلا يستجيبون :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ  
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا  
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا  
مُسْلِمُونَ ﴾

( آل عمران: ٦٤ )

والنداء ممتد والدعوة للأجيال - والقرآن محفوظ - لا تنقطع . والوعيد شديد لمن دعى إلى الحق فأباه وإلى العدل فأثر الجور . وإلى الدين الواحد فأبى إلا التفرقة بين الله ورسله . والقول بأنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض . الوعيد شديد لمن دعى إلى الإيمان بما أنزل الله فأبى إلا الكفر بآيات الله ، والقرآن ينذرهم وقد جاء مصدقاً لما معهم بين حقيقة ما أنزل على رسلكم ويحذرهم من الخضوع لما وقع فيه أسلافهم من تحريف وتبديل وكتهان وإنكار والافتداء بهم فيما زعموه من باطل أو سطره من افتراء وكذب .

فمن أراد أن يعرف صدق ما جاء في التوراة فعليه بالقرآن ومن أراد أن يعرف حقيقة ما جاء في الإنجيل فعليه بالقرآن . ومن زعم أنه يؤمن بموسى وعيسى لا يكون مؤمناً بهما إلا إذا آمن برسول الله جميعاً بلا تفرقة . والقرآن يهدى إلى الحق في كل ذلك وإلى طريق مستقيم . فقد أنزله الله بالحق ليقر ما هو حق ويرد ما هو باطل . والحق حدير أن يتبع . والباطل لصيق لا بد أن يهلك ويذهب . والقرآن وهو الحق يتوافق مع التوراة والإنجيل توافق حق مع حق وهدى مع هدى ونور مع نور . والقرآن شاهد لا ترد شهادته . مؤتمن لا تنكر أمانته . مهيمن لا تخفى هيمنته . وهو يقرر أصل الدين في جميع الكتب وينادى بالتوحيد على ألسنة جميع الأنبياء والرسل . فمن خالف ذلك فقد كذب على التوراة وكذب على الإنجيل وافترى على كتب الله ونسب إليها ما ليس فيها :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

( الأنبياء : ٢٥ )

﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

( النساء : ١٧١ )

والله هو الذي أنزل التوراة بالحق وأنزل الإنجيل بالحق وهو الذي نزل القرآن بالحق . الكل من عند الله . وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه ولا تناقض وما كان من عند غير الله يجد الناس فيه اختلافاً كثيراً .

فلنقرأ التوراة في القرآن ولنقرأ الإنجيل في القرآن . لنؤمن بما جاء فيهما من الحق . ونرد ما نسب إليهما بغير حق :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴿٤٨﴾

( المائدة : ٤٨ )

ولنعرف الدين الذي بعث الله به الرسل جميعاً حتى نقيمه كما شرع الله ولا نتفرق فيه كما أمر رُسُلُ الله عليهم السلام :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

( الشورى : ١٣ )

وليس من وراء ذلك سبيل للنجاة من العذاب المهين :

﴿ الْمَرْءُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

( آل عمران : ٦-١ )

ومن غير أهل الكتاب ترى أقواما على الكفر قد مالوا إلى التقليد والافتداء بالأبواء . فمن وجد أباه يخضع لحجر قلده في عبادته ومنهم من قلده في عبادة شجر أو بقر أو بشر أو شمس وقمر . ومنهم ومنهم .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ( يوسف : ١٠٣ )

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

(يوسف: ١٠٦)

﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

(الأنعام: ١١٦)

ومن هؤلاء من جاءهم الحق فأعرضوا عنه وكذبوا به . علموه فأنكروه فلم يكن لهم عذر من بعد ما جاءهم الهدى وتبين الرشد من الغي . وتراهم مع كل رسول أهل تكذيب وجدال . والله عز وجل يأخذهم بذنوبهم ويجعلهم عبرة وتذكرة لمن بعدهم :

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي  
الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ  
بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا  
بِالْبَطْلِ لِيُذْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(غافر: ٤، ٥)

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا  
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ  
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ  
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٠)

ما من نبي بعث في قومه أو رسول جاء أمة إلا كذبوه وقالوا ساحر أو مجنون :

﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ

## ﴿ أَحَادِيثُ فَبَعْدَ الْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

( المؤمنون : ٤٤ )

وهذا يقع من أكثرهم . والمستجيبون هم القلة . وكل هلاك يقع بالمكذبين يكون حديثاً وخبراً فيمن وراءهم يذكر بالعاقبة والمصير وسنن الله لا تجامل أحداً ولا تحابي ولا تتبدل ولا تتحول .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ  
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى  
وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

( آل عمران : ١٣٧ ، ١٣٨ )

وما وقع للرسول من قبل من تكذيب واستهزاء وقع لرسولنا صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَحْسَرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

( يس : ٣ )

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

( فاطر . ٤ )

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

( فاطر : ٢٥ ، ٢٦ )

وكل هؤلاء لم يكذبوا إلا بعد بيان ولم يؤخذوا إلا بعد بلاغ . ولم يعرضوا إلا بعد تذكير

بآيات الله :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمَجْدِلَ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بِالْبَطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا  
أُنذِرُوا هُزُوعًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا  
وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَايَ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ  
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا  
إِذَا أَبَدًا ﴾

( الكهف : ٥٦ ، ٥٧ )

أضلهم الله على علم وجزاهم بما يستحقون وحق بهم ما كانوا به يستهزءون .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

( الأنعام : ٥ )

ومورد الآية في الحديث عن المشركين المكذبين الذين جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحق فأعرضوا عنه وصدوا عن سبيله ولم تغن عنهم الآيات والنذر ولم تفدهم العظات والعبر:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

( الأنعام : ٤ )

والمراد « بالحق » ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربهم المتضمن إخلاص العبادة لله والإيمان باليوم الآخر . وكل ما جاءهم به هو الحق من عند ربهم . والحق جدير أن يؤخذ بجد وأن يستمسك به وأن يحرص عليه وأن يقابل باحترام وتقدير لا باستهزاء وتكذيب . ولكن القوم غفلوا عن العاقبة واتخذوا آيات الله ورسله هزوا وغاب عنهم ما وقع لأمثالهم من قبل فحرموا هداية الله وحققت عليهم الضلالة ﴿ فقد

كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزون ﴿

يقول ابن كثير: وهذا تهديد لهم ووعد شديد على تكذيبهم بالحق بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب وليجدن غبه وليذوقن وباله ثم قال تعالى واعظاً لهم ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا وأكثر أموالاً وأولاداً واستعلاء في الأرض وعمارة لها فقال :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ  
تُمْكِنْ لَكُمْ ﴾

( الأنعام : ٦ )

أى من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود ولهذا قال :  
﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ﴾ . أى شيئاً بعد شىء . ﴿ وجعلنا الأنهار تجري  
من تحتهم ﴾ أى كثرت عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض أى استدراجاً وإملاء لهم .  
﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ . أى بخطاياهم وسيئاتهم التى اجترموها . ﴿ وأنشأنا من  
بعدهم قرناً آخرين ﴾ . أى فذهب الأولون كأسس الذاهب وجعلناهم أحاديث .  
﴿ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ أى جيلاً آخر لنختبرهم فعملوا مثل أعمالهم  
فأهلكوا كإهلاكهم فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم فما أنتم بأعز  
على الله منهم . والرسول الذى كذبتموه أكرم على الله من رسولهم فأنتم أولى بالعذاب  
ومعالجة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

إن التكذيب بالحق سفه يُودى بصاحبه ويعرضه للشقاء فى الدنيا والآخرة :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ  
نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

( الانعام : ٦٦ ، ٦٧ )

ومورد الآية فى الحديث عن موقف قريش . قوم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد

كذبوا بالقرآن وهو الحق الذى ليس وراءه حق . والرسول صلى الله عليه وسلم يبلغهم ويحذرهم من سوء المصير إن هم أعرضوا عنه ولم يستجيبوا له . . وما على الرسول الا البلاغ فمن اتبعه فاز ونجا ومن خالفه هلك وخسر وما حذرهم منه لا بد أن يقع « لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ » . قال ابن عباس : أى لكل نبأ حقيقة أى لكل خبر وقوع ولو بعد حين . كما قال الله : ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ وقال : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد ولهذا قال بعده : ﴿ وسوف تعلمون ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

(الانعام : ١١٤)

ومورد الآية فى مواجهة المكذبين الذين يريدون أن يكون الداعى إلى الحق على هواهم وأن يكون الحق الذى جاء به وفاقا لما هم عليه .

وقد ذكر الماوردى فى تفسيره - بغير سند - سبب نزول هذه الآية فقال : « وسبب نزول هذه الآية أن مشركى قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما إن شئت من أحبار اليهود وإن شئت من أحبار النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزلت عليه هذه الآية<sup>(٢)</sup> .

وقال فى قوله : ﴿ أفغير الله أبتغى حكما ﴾ فيه وجهان : (أحدهما) معناه هل يجوز لأحد أن يعدل عن حكم الله حتى أعدل عنه . (والثانى) : هل يجوز لأحد أن يحكم مع الله حتى أحتكم إليه .

والفرق بين الحكم والحاكم أن الحكم هو الذى يكون أهلا للحكم فلا يحكم إلا بحق . والحاكم قد يكون من غير أهله فيحكم بغير حق .

(١) ابن كثير.

(٢) النكت والعيون : تفسير الماوردى . أبى الحسن على بن حبيب الماوردى البصرى (٣٦٤ - ٤٥٠) الجزء الأول . ص ٥٥٦ . نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية .

وقال القاسمى : قوله تعالى : ﴿ أفغير الله أبتغى حكما ﴾ على تقدير القول ، كما فى نظائره أى : قل لهم : أفغير الله أطلب من يحكم بينى وبينكم ، ويفصل المحق منا من المبطل . والمعنى : أطلب معبودا ، لأنهم كانوا يتحاكمون إلى طواغيتهم - وهذا عندى أظهر -

ثم رأيت فى - تنوير المقباس - الاقتصار عليه - حتى قال : (أبتغى حكما) . أعبد ربنا . وأما كون الآية واردة على قولهم ﴿ اجعل بيننا وبينك حكما ﴾ . فلا يصح ، لأنهم بمعزل عن الانصياع لذلك . ﴿ وهو الذى أنزل اليكم الكتاب ﴾ . أى القرآن المعجز - « مفصلا » أى : مبينا فيه الفصل بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأنتم امة أمية ، لا تدرّون ما تأتون وما تدرّون » . انتهى .

وسواء كانت الآية فى مواجهة طلبهم الحكم أو فى الإنكار عليهم عبادة غير الله . فإن فيها تقريرا وإنكارا . . تقريرا لما يجب أن يكون من اتباع الحق الذى أنزله الله مفصلا مبينا واضحا والذى لا يجله أولئك الذين آتاهم الله الكتاب من اليهود والنصارى ويعلمون أنه الحق . وإنكارا على الذين يخالفونه ويتغون غيره .

يقول ابن عطية : وقوله تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ . يتضمن الإشهاد بمؤمنينهم والطعن والتنبيه على مشركهم وحسدتهم . وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم منزل بالتشديد والباقون بالتخفيف . والكتاب أولا هو القرآن . وثانيا اسم جنس التوراة والانجيل والزبور والصحف . ووصفه أهل الكتاب عموم بمعنى الخصوص وإنما يريد علماءهم وأخبارهم . وقوله : ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ . تثبت ومبالغة وطعن على الممترين » . انتهى .

ويقول البيضاوى فى قوله : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ . تأييد لدلالة الإعجاز على أن القرآن حق منزل من عند الله يعلم أهل الكتاب به لتصديقه ما عندهم مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ولم يخالط علماءهم وإنما وصف جميعهم بالعلم لأن أكثرهم يعلمون ومن لا يعلم فهو متمكن منه بأدنى تأمل . وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب » . انتهى .

ولكن المكذبين لا يفقهون إلا حين يرون الحق عذابا يحيق بهم

عندئذ يطلبونه إنقاذاً لأنفسهم - وقد كان قريبا منهم .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ  
مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ  
فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا  
أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

(الاعراف : ٥٣)

اعتراف بالحق في دار الجزاء وإنكار له من قبل في دنيا الابتلاء . ﴿ قد جاءت  
رسل ربنا بالحق ﴾ . . يقولون ذلك عندما تحقق وعيده ورأوا بأعينهم أن ما أخبر به  
ودعا اليه هو الحق وأن لا إنقاذ لأحد إلا بالإيمان بالحق .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرَعْوَاهُ أَفْلَاقًا فُوتَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا  
ءَأَمَّنَّا بِهِ ءِ وَأَنْتَ لَهُمْ التَّنَاوُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ  
كَفَرُوا بِهِ ءِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾  
وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ  
كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾

(سبا : ٥١ - ٥٤)

لقد ضيعوا الإيمان بالحق الذي دُعوا اليه في الدنيا وهامهم - حين وقعوا في  
العذاب - يطلبونه . وأنى لهم أن يتناولوا الإيمان بالحق وقد بعد عنهم وقد كفروا به  
من قبل وقد كان في متناولهم . «يالها من خسارة لا إنقاذ منها نعوذ بالله منها ومن  
السبل الموصلة اليها ونرجوه حسن العاقبة في الأمور كلها .

ومن عجب أن المكذابين يكذبون على أنفسهم - وهم يعلمون انهم يكذبون فهم  
يصفون « الحق » - الذي يعرفون أنه الحق - بغير صفته ليبرروا لأنفسهم البقاء على

الباطل يصفونه بكلمة تتردد على ألسنة المكذبين جميعا مع اختلاف الزمان  
والمكان .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾  
قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ

السَّحِرُونَ ﴿٧٧﴾

(يونس : ٧٦ ، ٧٧)

أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه بآيات بينات . فلما جاءهم  
الحق قالوا هذا سحر مبين - وهم يوقنون انه ليس بسحر وإنما هو الحق . وقد رأوا  
بأعينهم بطلان السحر وإيمان السحرة بالحق « إيماننا لم يفلح فرعون بتهديده  
ووعيده في صرفهم عنه أو إثارة عليه بل قالوا في ثقة وثبات :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَيْنَا مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَمِينِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ  
مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَاءً آمَنَّا بِرَبِّنَا  
لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾

(طه : ٧٢ ، ٧٣)

وهم الذين سمعوا منه .

﴿ فَلَا قِطْعَ بِيَدَيْكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا أُصْلِبَتْكُمْ فِي  
جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾

(طه ٧١)

ومع هذا أعلنوا إيمانهم بالحق ليقينهم به وعلمهم أن فرعون - في كبره وإجرامه -  
قد ينفذ ما توعدهم به . وكان ذلك الموقف من السحرة كافيا في صرف فرعون  
وملئه عن باطلهم بعد أن رأوا أن ما جاءهم به موسى ليس بسحر إذ لم يفلح من  
جاء بالسحر . وأن الحق هو الذي يغلب والذي يبقى وغيره يهلك ويذهب - ولكن  
الظالمين بآيات الله يجحدون .

والحق لا يقبل التليس بل لا يقبل أن يخالطه باطل ولا يلبث الباطل أن يذهب جفاء إن هو حاول أن يلتصق به أو يزعم نسبته إليه . وبيان الحق لا يبقى في ساحته ظلام ليل أو ظلمات إفك . إنه النور ولا يقوم مع النور ظلام . إنه السراج ولا يبقى مع الشمس عتمة ليل أو ظلام . فقد قال اليهود في عيسى عليه السلام ما قالوا وقالت النصارى في عيسى ما قالت . وجاء قول الحق من الله ليبطل كل قول غير الحق : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ . فليس بساحر كما قال اليهود . وليس ابن الله كما قالت النصارى . بل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ولن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله - فهل انقطع المرء عند اليهود أو النصارى - وهم يسمعون قول الحق وكلمة الفصل في أمر عيسى عليه السلام أم ظلوا يمترون ويشكون ويتنازعون ؟ . هل استجابوا للحق وآمنوا به أم علموه فأعرضوا عنه ؟ . لقد قالها عيسى من قبل وسيقولها من بعد :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

(الزخرف : ٦٤)

وعندئذ سيرى الذين قالوا على الله غير الحق أنهم قد ظلموا وضلوا ضللاً مبيناً . والقرآن الكريم يناديهم جميعاً تعالوا الى كلمة سواء واقبلوا الحق ولا تكذبوا على الله . تعالوا قبل أن تأتي الساعة الفاصلة وتساقون لمشهد يوم عظيم . تعالوا إلى الحق الذي جاءكم به عيسى وموسى وأرسل به الأنبياء جميعاً ولا تغلوا في دينكم . تعالوا لعبدالله وحده ولا نشرك به شيئاً . تعالوا لتقولوا ما قاله الصادقون من اتباع عيسى :

﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ  
رَبَّنَا ءَأَمْنَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَأَتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ  
الشَّاهِدِينَ ﴾

(آل عمران : ٥٢ ، ٥٣)

ولتكونوا مع الصادقين من اتباع موسى وهم يهدون بالحق وبه يعدلون . ولا تكونوا كأولئك الذين يعلنون إيمانهم بالحق حين يدركهم الغرق أو يحضرهم الموت . كونوا كأولئك الذين عرفوا الحق فطابت به نفوسهم وفاضت بالدمع أعينهم . ولا تكونوا كالذى طغى وتكبر :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا دَرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(يونس : ٩٠)

ان افتراء الكذب على الله وتكذيب الحق هو أظلم الظلم . وأعظم الفساد . فاحذروا الوقوع فيه والإصرار عليه .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ

لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾

(العنكبوت : ٦٨)

افترى على الله كذبا بأن زعم الله شريكا أو كذب بالحق لما جاءه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو الكتاب . فذاك إن وقع من الجاهلين فلا يليق أن يقع ممن عرفوا الحق وجاءهم البينات . إن الجاهل الذى لا علم له بالحق قد يكذب ويسارع فى التكذيب عند سماعه للحق ولكن الذى عنده علم من الكتاب يجب أن يتدبر وألا يركن إلى تقليد فيسرع فى التكذيب .

ان مورد الآية فى عباد الاصنام والأوثان . ولكن العبرة فيها بعموم اللفظ « وَمَنْ » من ألفاظ العموم فهى تنطبق بدالاتها على كل من زعم لله شريكا ونسب إليه سبحانه ما لا يليق به . وكل من كذب بالحق فى أى زمان أو مكان حاق به جزاؤه . والله قد توعد من كذب عليه أو كذب بالحق الذى أنزله بعذاب مقيم : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه ونعوذ بك من النار وأهل النار .

ومن العجيب أن أهل الباطل يفترون على الله الكذب ويرمون من جاءهم بالحق بالافتراء . يلقون بدائهم على غيرهم . وهم يحسبون أن رميتهم قد أصابت . وما دروا أن الكذب لا يحق إلا بأهله . وأن تقليدهم لأبائهم قد أعماهم وصرفهم عن النظر والتدبر ليعلموا الصدق من الكذب . والحق من الباطل :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

(السجدة : ٣)

﴿ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَسْتَنِيذُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(سبأ : ٤٣)

هكذا تلقى الكلمات من أفواه المكذبين دون نظر فيما يقولون . قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ؟ ولا يسألون أنفسهم ماذا كان يعبد الآباء ؟ ولماذا ينكر عليهم أن يقلدوا آباءهم ؟ كأن كل ما كان عليه الآباء شرف لا يمس وعز لا ينتقص ولو كانوا في ضلال مبين . وأى قيمة تبقى للإنسان إن هو قلد غيره فيما يدمر كرامته ويذهب قيمته ويجعله دون الحجر الذي يعبد والصنم الذي يسجد له ؟ .

أى قيمة تبقى للإنسان إن هو أغمض عينه واقتدى بمن يهوى به فى واد سحيق ؟ وأين النظر والتدبر لمن يقولون : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ ؟ يقولون ذلك ولو كان ما جاءهم به هدى لهم ورحمة بهم . وانقادا من النار . وما جاءهم به هو الحق وما كان عليه الآباء هو الباطل . ويقولون بأفواههم - عما جاءهم به وفيه إنقاذهم - ما هذا إلا إفك مفترى . بل يقولون للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين .

هل يمكن أن يسجل الإنسان على نفسه كفرا أشد من ذلك؟ تكذيب بالحق  
 وافتراء عليه وصد عنه وإيثار لِمَا لا حجة فيه ولا برهان على من جاءهم بالبينات ودعاهم  
 على بصيرة وحثهم على التفكير فيما يدعوهم إليه والتدبر فيما يأمرهم به :

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ  
 عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

(المؤمنون : ١١٧)

لا يملك الإنسان أن يصف هؤلاء إلا بما وصفهم به القرآن الكريم وهم يتخذون  
 إِلَهُهُمْ هَوَاهِم :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا  
 كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

(الفرقان : ٤٤)

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ  
 لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ  
 بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(الاعراف : ١٧٩)

وهكذا يكون وقود النار :

﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

(البقرة : ٢٤)

وهؤلاء قد علموا الحق فانكروه وجاءهم الصدق فكذبوه وهداهم إلى صراط  
 مستقيم فسخروا منه واستهزءوا به :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ

غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِيَهُ مَا تَوَلَّى وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمَ  
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿

(النساء : ١١٥)

وسنن الله في خلقه لا تحابى ولا تجامل :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُكْذِبِينَ ﴾

(الأنعام : ١١)

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ  
وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجْعَلُوا بِالْبَاطِلِ  
لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(غافر : ٥)

والجدال بالباطل لدحض الحق سمة كل مكذب بالحق لا يجادل بالحجة والبرهان ولا يقول بسند أو دليل وإنما جداله كفعاله بغى وسفه وعتو وفساد يقابلون به الحق ولا تسمع منهم كلمة رشد يقابلون به الرشد بل الإسراع الى البطش والمكر والكيد ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ . ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ . أهذا ما يقابل به الحق ؟ قتل للأبناء وما ذنبهم ؟ واستحياء للنساء وما جريمتهن ؟ والداعى الى الحق لم يقل شيئا إلا ربي الله ولم يدع إلى شيء إلا إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ولم يطلب أجراً حتى يُضاق به . ولم يعلن حرباً حتى يُقتل أبناء الذين آمنوا معه أو يستحيوا نساءهم . الداعى الى الحق رسول وماعلى الرسول إلا البلاغ . والذين آمنوا به لم يُكْرَهُوا على إيمان أو يسيئوا إلى غيرهم وهم يؤمنون فكيف يكرهون على ترك ما آمنوا به بقتل أولادهم ونسائهم ؟

هذا هو منطق الطغاة الذين لا يؤمنون بيوم الحساب . بل مسلك البغاة الذين

يظهرون فى الأرض الفساد . إنهم يضيقون بالحق لأنه يكشف باطلهم . ويبغضون من آمنوا به لأنهم خرجوا - بمشيئة الله - من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق . والطغاة يريدون أن يستخفوا الناس لطاعتهم وأن يسخروهم لخدمتهم . وأن يخضعوهم لمآربهم وشهواتهم . وهذا فرعونهم يقول : ﴿ ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ ويقول فيما حكاه القرآن : ﴿ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ . ويقول كبرا وعتوا وعنادا . ﴿ ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ﴾ .

ولم تفدهم موعظة مؤمن منهم أفاض فى تذكرتهم وأخلص فى النصح لهم وحذرهم عاقبة تكذيبهم وطغيانهم وفسادهم . نهاهم عن قتل الداعى الى الحق بقوله : ﴿ أقتلون رجلا أن يقول ربهى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ . وشرح لهم فى منطق سديد ورأى رشيد ﴿ إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴾ . بل خوفهم يوم التناد ودعاهم إلى اتباعه فيما آمن به ﴿ اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ . وبين لهم حقيقة الدنيا التى فتنوا بها والآخرة التى هم مقبلون عليها : ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ .

وقارن بين موقفه وموقفهم وما يؤدى إليه ما هم عليه من دمار وعذاب ﴿ ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به مالىس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ . وختم نصيحته لهم بالتذكير والتفويض الى الله . ﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ . فهل استجاب الطغاة لهذا النصح النير وهذه الموعظة البالغة . أم بالغوا فى مكربهم وأصروا على كفرهم وطاردوا أهل الحق وتبعوهم حيثما ذهبوا ولم يوقف طغيانهم إلا عقاب الله النازل بهم وأخذهم بذنوبهم . وترى عندئذ فرعونهم قد

صار جباناً وكافراً يعلن إيمانا وجاحدهم بالحق يشهد للحق ويعلن دخوله في أهل الحق . ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ . وترى المكر وقد حاق بأهله وترى المفسدين وقد أخذوا بذنوبهم . وتبصر من نادى بالحق وأخلص له تراه هناك في نعيم مقيم قد فاز وسلم ووقاه الله سيئات ما مكروا .

﴿ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا كُرُوا وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

(غافر : ٤٥ - ٤٦)

نعم نجا من آمن بالحق ودعا اليه ونصح وبلغ ونهى عن السوء وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون .  
أليست هذه العاقبة كافية في ردع المكذبين ؟ .

وكم لله في خلقه من آيات - ﴿ وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذْرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فكل أمة عرفت ما وقع بسابقتها ومن الرشد ألا تقع فيما وقعت فيه وألا تسلك السبل التي أودت بمن كان قبلها . ولكن المكذبين هم المكذبون . ﴿ فويل للمكذبين ﴾ . كلما جاء أمة رسولها كذبوه ﴿ . وقع هذا مع خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم مع أن القرآن يتلى عليهم ويذكرهم بما وقع للذين من قبلهم :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾

(الزخرف : ٣٠)

واستخفوا بمن جاءهم بالحق وسخروا منه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

(الزخرف : ٣١)

والعظمة عندهم تتمثل فيمن يملك الشاة والبعير وفيمن يملك من متاع الدنيا -

ومتاع الدنيا قليل . العظمة عندهم عرض زائل وهذا مما يصاب به المكذبون . فتنه  
بالعاجلة ونسيان للآخرة :

﴿ إِنَّكَ هَتُّؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾

(الإنسان : ٢٧)

لم تغنهم الآيات ولم تفدهم العبر :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ  
اللَّهِ وَعَآئِنِيبِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ  
اللَّهِ تُنَلِّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ أَلِيمٍ  
﴿٨﴾ وَإِذْ أَعْلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ  
مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مَنْ وَرَأَيْهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا  
وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا  
هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزِ أَلِيمٍ ﴾

(الجنانية : ٦ - ١١)

هكذا يفعل المكذبون مع كل نبي وكل رسول يملى عليهم شياطينهم فيردد  
الآخرون ما يقوله الأولون :

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ  
﴿٥٢﴾ أَتَوَصَّوْا بِهِ بِبَلِّ هُمْ قَوْمٌ طَآعُونَ ﴾

(الذاريات : ٥٢ ، ٥٣)

﴿ وَإِذْ نُتَلِّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَتَّبِعْتِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ  
هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(الاحقاف : ٧)

ولا يثبتون حتى على ما يقولون بل هو تارة سحر . وتارة أساطير الأولين . واخرى  
تملية الشياطين . والذي جاءهم بالحق تارة ساحر . واخرى شاعر أو مجنون . والذي  
يعلمه بشر . لا يستقر لهم قول ولا يطمئن لهم حال .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ ﴾

(ق : ٥)

لا قرار . ولا استقرار . ولا طمأنينة . ولا ثبات لمن كذب بالحق . بل هو  
الاضطراب فى داخل النفس وخارجها . فى الكلمة التى تقال . وفى العمل الذى  
يراد . وفى كل شأن من الشؤون مرج واضطراب عقاب يقع بالمكذب فى دنياه ومرض  
ليس - من دون الحق - له شفاء . واذا رأيت نفسا قد اضطرب أمرها أو عصرًا قد ساء  
حاله فابحث عن موقع الحق فى هذه النفس وذلك العصر . إن الاضطراب فى العصر  
قد يُفضى إلى حرب النجوم وقد يسوء الى أبعد من ذلك كلما بعد الناس عن الحق  
وتنكبوا طريق الإنصاف والعدل .

واذا رأيت الأمر قد وُسدَّ إلى غير أهله فانتظر الحق فى قيام  
الساعة واستمسك بالحق ولا تخف فبالحق ومن أجل الحق تقوم  
الساعة . وإذا رأيت صراع أمم لغير غاية واضطراب شعوب فى  
متاهة فاعلم أنها فى الباطل قد أخذت ومن كلمة الحق قد  
حرمت وألا مخرج لها إلا أن تستجيب لهذا النداء تعالوا إلى كلمة  
سواء ألا نعبد إلا الله . وإذا رأيت عقمًا فى التدبير وزحمة فى  
إصدار القوانين واضطرابًا وتصارعًا بين القيل والقيـل . فلا تسل  
عما فى البنوك والجيوب ولكن سل عما فى النفوس والقلوب .  
هل للحق فى التعامل نصيب . أم هو الباطل تحرسه القوة وتؤثره  
النفوس ؟ . وإذا رأيت الجريمة قد سرت والأمن قد اضطرب  
فاعلم أن شريعة الله قد عُطلت وأن قوانين البشر قد أوثرت فوق  
العقاب وحق العذاب .

وإذا رأيت الفاحشة قد شاعت . وأن المرأة قد استدرجت إلى

مجالس الرجال وأندية الرجال وقد تركت قلعتهأ وأهملت أمومتها  
فأعلم أن جيلا خائبا خائرا سيولد لا يعرف حق الامومة ولا يملك  
شرف الرجولة قد يقتل أمه وأباه وهو يقول أريد أن أريحهم  
من الحياة .

ولا تسل عن الاضطراب والهرج والمرج اذا تنكر الناس للحق  
وأخسر ميزانه بين الخلق . لا تسل عن الاضطراب فى كل  
شء . فان الحق عصمة لكل شء . والله يقول الحق وهو  
يهدى السبيل .

